العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

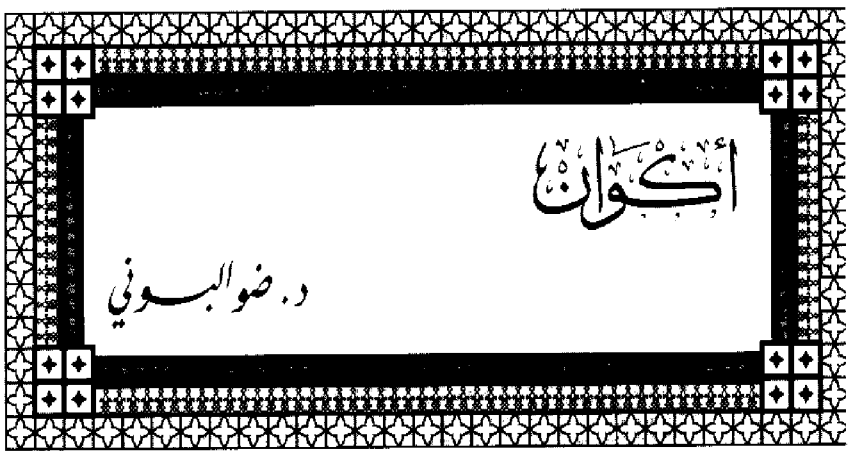

الأكوان جمع: كون وهو في الاصطلاح العربي اسم لما حدث دفعة واحدة[1]. ويطلق ـ عند الحكماء ـ بالاشتراك على معنيين:

الأول: حدوث صورة نوعية أخرى، بمعنى أن الحدوث هو الكون، والزوال هو الفساد. وإنما قيدت بالصورة النوعية، لأن تبدل الصورة الجسمية على الهيولى الواحدة لا يسمى كوناً ولا فساداً في اصطلاحهم، لبقاء النوع مع تبدل أفراده، ولا بد من أن يزاد قيد دفعة، فيقال حدوث صورة نوعية وزوالها دفعة، إذ التبدل اللادفعي لا يطلق عليه الكون والفساد. وهذا هو المفهوم الخاص لمعنى الكون[2]. وهو عند «**أرسطو**» تحول جوهر أدنى إلى جوهر أعلى، ويقابله الفساد، وهو زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة.

الثاني: الوجود بعد العدم، والعدم بعد الوجود. وهذا هو المفهوم العام للكون. ولا بد فيه من اعتبار قيد دفعة أيضاً، ولهذا يقال: الكون والفساد: خروج ما هو بالقوة إلى الفعل دفعة كانقلاب الماء هواء، فإن الصورة الهوائية

(1) معجم المصطلحات الفلسفية، مراد وهبة. ص526. الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. مدينة العاشر من رمضان.

(2) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، 2/ 248. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1982.

للماء موجودة بالقوة، فخرجت عنها إلى الفعل دفعة[3] فإذا كانت على التدريج فهي الحركة. وقد منع بعض المتكلمين تبدل الصورة، وقال: لا كون ولا فساد في الجواهر، والتبدل الواقع فيها، إنما هو في كيفياتها دون صورها[4].

وعند عامة المتكلمين: الكون مرادف للوجود. كما يطلق عندهم عن الأين، ويعنون به حصول الجوهر في الحيز بالكون، ويعترفون بوجوده، وإن أنكروا سائر المقولات النسبية، وقد حصروه في أربعة أنواع: الاجتماع والافتراق، والحركة والسكون[5]. والجمهور منهم على أن المقتضى للحصول في الحيز هو ذات الجوهر لاصفة قائمة به.

فهناك شيئان: ذات الجوهر والحصول في الحيز المسمى عندهم بالكون. والكون والثبوت، والوجود، والتحقق ـ عند الأشاعرة ـ ألفاظ مترادفة.

أما عند المعتزلة: فالثبوت أعم من الوجود، والثبوت، والتحقق عندهم مترادفان، وكذلك الكون والوجود.

والكونُ مرادف التكوين: وهو تركيب الشيُ بالتأليف بين أجزائه، أو إخراجه من العدم إلى الوجود، ويعبر عنه بالخلق والتخليق، والإحداث، والاختراع، والإبداع، والصنع، والتصوير، والإحياء، وجميع هذه الألفاظ متقاربة.

والكون عند أهل التحقيق: عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم، لا من حيث إنه حق، وإن كان مرادفاً للوجود المطلق عند أهل النظر، وهو بمعنى المكون عندهم[6] أي المؤلف الذي أخرجه الله من العدم إلى الوجود.

---

(3) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة، د. رفيق العجم، 2/ 1392. الطبعة الأولى 1993م. مكتبة لبنان بيروت.

(4) المرجع السابق 2/ 1393.

(5) شرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة 2/ 396 الطبعة الأولى 1996م الطبعة الأولى 1409هـ ـ1979م، عالم الكتب، بيروت.

(6) التعريفات، للجرجاني ص190. مكتبة لبنان بيروت. طبعة جديدة 1985م.

وعلم الكون: هو العلم الذي يبحث في القوانين العامة للعالم سواء أكان ذلك من الجهة التجريبية، أم من الجهة الفلسفية.

وعلم نشأة الكون: هو العلم الذي يتضمن وصفاً لأصل العالم، وتكوينه، ونشوئه وهو في الغالب ذو طابع أسطوري.

وعلم الكون العقلي ـ عند **(كانت)**: هو البحث في المسائل المتعلقة بأصل العالم وطبيعته، من جهة ما هو حقيقة وجودية متعينة خارج الذهن[7].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هناك جملة من الأسئلة التي تدور في أذهان كثير من الناس، وهي أسئلة كثيرة وصعبة من مثل:

كيف ظهر هذا الكون إلى الوجود؟ وما عمره؟ أحادث هو أم قديم وأزلي؟ وهل يمكن أن يكون هناك أزليان: خالق أزلي وكون أزلي؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي كانت محلاً للنقاش بين الفلاسفة المؤمنين منذ مئات السنين.

أما الفلاسفة الملحدون فكانوا يدعون أن الكون لا يحتاج إلى خالق، لأن المادة أزلية بمعنى أنهم كانوا يضيفون إلى المادة إحدى صفات الخالق، وهي صفة الأزلية، لذا كان من ضمن قوانينهم الفزيائية: (لايمكن خلق المادة من العدم، كما لا يمكن إفناء المادة).

ولكن الإمام أبا حامد الغزالي (ت 505 هـ) كان أول من حل مشكلة قدم العالم، وأجاب على جميع المشاكل المثارة حول مدة الترك، أي الفرق الزماني بين الأزل، وبين بدء خلق الكون، فقال: بأن الكون حادث، وأنه لم يكن قبله زمان، بمعنى أن الزمان والمكان بدءا بعد خلق الكون، لأن الزمن مرتبط بالحركة، ولو تصورنا أن كل شيء في الكون قد سكن وتوقف عن الحركة، إذن لتوقف الزمن، وهكذا فمن الخطأ توهم وجود قبل خلق الكون[8].

---

(7) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، 2/ 247 ـ248 مرجع سابق.

(8) انظر: تهافت الفلاسفة، للغزالي، تحقيق سليمان دنيا، ص110/ 111. ط6، دار المعارف. جمهورية مصر العربية.

بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[9] وما دام الكون في توسع دائم، فلو نظرنا إلى الموضوع بطريق عكسي، بمعنى أن نرجع إلى الوراء، فمن الضروري أن يكون الكون كله مرتكزاً ـ في الماضي ـ في نقطة واحدة أطلق عليها العلماءُ اسم «الذرة البدائية».

وقال علماء أخرون إن حجم هذه النقطة كان يساوي الصفر وكتلته لا نهائية وهذا تعبير آخر من أن الكون ظهر من العدم، لأن هذا هو المعنى الذي تفيده «نقطة حجمها يساوى صفر».

ولكن أي قوة تقوم بقذف مائة مليار مجرة بسرعة جنونية مبعدة الواحدة عن الأخرى، وموسعة الكون نتيجة هذا التباعد السريع؟

ولا يمكن أن تكون قوة الجاذبية، أو قوة التنافر الكهربائي بين الأقطاب المتشابهة في هذه القوة القاذفة، فقوة الجاذبية قوة تحاول جذب الأجرام السماوية نحو المركز وليس إبعادها نحو الخارج.

كما أن قوة التنافر الكهربائية أضعف بكثير من القيام بمثل هذه العملية الضخمة ونظراً لوجوده تعادل كهربائي في الكون، فمثل هذه القوة لا وجود لها تقريباً بين الأجرام السماوية.

ومن هنا فلا بد أن انفجار هائلاً قد حدث عند ميلاد الكون هو الذي أدى إلى توسع الكون، وقد أطلق عليه العلماء اسم «**الانفجار الكبير**». وبعد إجراء بعض التعديلات على نظرية الانفجار الكبير فإن الصيغة الحالية لها ـ باختصار ـ هي: «أن انفجاراً هائلاً وقع في هذه الذرة البدائية التي كانت تحتوي على مجموع المادة والطاقة.

وفي اللحظات الأولى من هذا الانفجار الهائل ارتفعت درجة الحرارة إلى عدة تريليونات، حيث خلقت فيها أجزاء الذرات، ومن هذه الأجزاء خلقت

(9) سورة الذاريات، الآية: 47.

الذرات، ومن هذه الذرات تألف الغبار الكوني الذي نشأت منه المجرات فيما بعد.

ولكن متى حدث هذا الانفجار الكبير؟

لا يوجد رقم قطعي في هذا الخصوص. ولكن علينا أن ننتبه إلى قضية مهمة. وهي أن سرعة توسع الكون، وتباعد المجرات ليست ثابتة، وأنها كانت في السابق أسرع، لذا فإن تاريخ الانفجار في الأغلب كان قبل (15) مليار سنة تقريباً وهذا هو الرأي المرجح حالياً.

هذا ومن الأدلة المهمة على نظرية الانفجار الكبير هو وجود الاشعاع الكوني، فقد قال العلماء: لو أنه كان هناك مثل هذا الانفجار لكان من الضروري أن يخلف وراءه إشعاعاً. وفعلاً تم العثور على هذا الإشعاع عندما أرسلت مؤسسة (ناسا) الأمريكية لأبحاث الفضاء قمراً صناعياً لغرض التثبت من هذا الشعاع عام 1989 م وزودته بأحدث الأجهزة الحساسة، واحتاج هذا القمر الاصطناعي إلى ثمان دقائق فقط للعثور على هذا الإشعاع وقياسه.

وهناك دليل آخر على هذه النظرية: هو أن مقادير ونسب وجود غازيْ (الهيدروجين والهليوم) في الكون يتطابقان مع حسابات هذه النظرية، ولو كان الكون أزلياً لاحترق جميع الهيدروجين وتحول إلى غاز الهليوم.

ومن هنا فإن دعاة الأزلية في مأزق.

ولا تكمن أهمية نظرية «**الانفجار الكبير**» في الجانب العلمي والفكري فقط، ولكنها سلبت سلاحاً أو قل عذراً قوياً كان يستند إليه بعض الفلاسفة والمفكرين والعلماء الملحدين، لأنها أنهت أسطورة «أزلية المادة وأزلية الكون» ولقد امتعض العديد منهم من هذه النظرية، يقول الفيلسوف الملحد (**أنطوني فلوف**) يقولون: إنّ الإعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأدلي باعتراف: إن أنموذج (**الانفجار الكبير**) شيء محرج جداً بالنسبة للملحدين، لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية: إنها فكرة أن للكون بداية.

ويقول العالم (**دونيس سكايما**) ـ وكان من أشد أنصار نظرية «الكون المستقر»: لم أدافع عن نظرية الكون المستقر، لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة. ولكن بعد أن تراكمت الأدلة فقد تبين لنا أن اللعبة قد انتهت وأنه يجب ترك نظرية الكون المستقر.

ومع أن ظهور حدوث المادة، وعدم أزليتها، وأن للكون بداية يدل على الخالق إلا أن طبيعة هذا الانفجار الكبير أضاف أدلة أخرى على أن الكون خلق بتقدير دقيق ونظام رائع؛ ذلك لأن أي انفجار لا يكون إلا مدمراً ومخرباً وهادماً ومشتتاً ومبعثراً للمواد، ولكن عندما نرى انفجاراً بهذا العنف، وبهذه القوة يؤدي إلى تشكيل وتأسيس كون منظم غاية النظام، فإن هناك إذن وراءه يد قدرة وعلم وإرادة، وتقدير لا نهائي لقوة فوق الطبيعة.

وإلى هذا يشير العالم البريطاني المشهور (**فرد هويل**) عندما يقول: تقول نظرية «الانفجار الكبير» بأن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير، ونحن نعلم أن كل انفجار يشتت المادة ويبعثرها دون نظام، ولكن هذا الانفجار الكبير عمل العكس بشكل محفوف بالأسرار، إذ عمل على جمع المادة لتشكل المجرات ولعل من أهم أسرار هذا الانفجار الكبير هي السرعة الحرجة التي وهبت لهذا التوسع الكوني عقب هذا الانفجار، وإلى هذا يشير العالم البريطاني المعروف (**بول ديفر**) عندما يقول: لقد دلت الحسابات أن سرعة الكون تسير في مجال حرج للغاية فلو توسع الكون بشكل أبطأ بقليل جداً عن السرعة الحالية بمقدار جزء من مليار × مليار جزء لكان هذا كافياً للإخلال بالتوازن الضروري؛ لذا الانفجار الكبير ليس انفجاراً اعتيادياً، بل عملية محسوبة جيداً من جميع الأوجه، وعملية منظمة جيداً.

ثم بعد: فماذا نستنتج من كل هذه الشواهد والمعلومات العلمية؟

والجواب يكمن في شرح (**بول ديفر**) لهذه النتيجة الحتمية لتلك الدلائل فيقول: من الصعب جداً انكار أن قوة عاقلة ومدركة قامت بإنشاء هذا الكون المستندة إلى حسابات حساسة جداً... إن المتغيرات الرقمية الحساسة جداً

الموجودة في أسس الموازنات في الكون دليل قوي جداً على وجود تصميم على نطاق الكون.

أما العالم الفيزيائي المشهور (**ستيفن هو فكن**) فهو يتناول في كتابه (**التاريخ المختصر للزمن**) الدقة المذهلة لسرعة توسع الكون في الثانية الأولى الحرجة من الانفجار الكبير، فيقول، إن سرعة التوسع الكون سرعة حرجة جداً إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون × مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي. ويصل عالم الفلكي (**جورج كرنشتاين**) إلى نفس النتيجة ففي كتابه (**الكون التكافلي**) يقول: كلما دققنا في الأدلة واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهي أن هناك قوة عاقلة فوق الطبيعة تدخلت في نشوء الكون. إذن هذا هو مبلغ الدقة المذهلة في تنظيم هذا الانفجار الكبير وفي تصميم سرعته[10]. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[11] ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[12].

(10) انظر: الموقع الاكتروني: إسلام أونلاين، على شبكة الانترنيت Islam On line.Net.

(11) سورة إبراهيم، الآية: 13.

(12) سورة فصلت، الآية: 52.